

لما قرأت نيتشة

للتناقد الفرنسي : أميل فاجيه

من أعضاء الأكاديمية الفرنسية

— ٢ —

ولعل هذا يرجع إلى تكوينها بالذات خارج كل نظام سياسي . وهي تشعر أو تحسب أنها تشعر بأن الناس يجتمعون لكي يحكموا انفسهم من العدو المحتمل . ولكي يعيشوا في أمن وسعادة . لا لكي يعيشوا معرضين للخطر . فالمجتمع الحديث لا يتجاوز في مهمته دعوة اكبر عدد ممكن من المخلوقات إلى الحياة . وهذا من شأنه ان يضيق المكان ويؤلف عائقاً ضد الحياة في الجمال وفي القوة والخطر . (لا بد من ملاحظة مذهب نيتشة في أن يعيش الانسان في خطر) قال « عديد لا يحصى من الناس يأتي العالم وقد خانت الدولة لسطحيين . من بينهم . انها تجتذبهم وتستخدمهم وتمضغهم ثم تمضغهم وتجمل من فضائلهم زينة لها » .

اذن فالمجتمعات الحديثة — وهي حديثة منذ أقدم ازمنة التاريخ — مناقضة لمذهب « نيتشة » . وهو من أجل ذلك لم يحجم عن أن يكون من بعض نواحيه عدواً للمجتمع وعلى الاخص ظهر بمظهر العداء للمجتمع . فقد صادف لحظات اضطرته الى أن يجابه المجتمع بالعداء ويقول « إن الحياة كما أدركها يمكن أن تكون هي الحياة الفطرية . وانه ليس من الميسور ان تتوفر وتتحقق في صورتها الكاملة الباهرة الا في الحالة الطبيعية . او في الفطرية للجمعيات غير المنظمة التي يطلق عليها اسم الحالة الطبيعية . وفي الحقيقة ان النظام الاجتماعي نفسه هو الذي يعادي مذهبي » . ولا اشك في أن نيتشة قد استطاع أن يحدث نفسه بذلك وان لم يكن قد كتب في أحد تأليفه . وهو

المفكر الذي لم يبال أن يقيد أفكاره بجماعة أو بسالة لا نظير لها . ومن الممكن أن يكون قد اقتنع — وربما عن خطأ — أن هناك عنصر هو العنصر اليوناني مثلاً قد نظم جميعه وخلق الحياة الحرة الجميلة القوية . فلم يقف عند حدود الفكرة المعادية للمجتمع .

ويتضح مما تقدم أن نيتشة لم ينتقد أي عائق لمذهبه بأشد ما انتقد المجتمع الحديث . المجتمع النفعي . المجتمع الذي لا تتجاوز أقصى غايته أن يوفر لا كبر عدد ممكن من المخلوقات البشرية سعادة جزئية شنيعة تشدئ منها الناس . تلك الجمعية هي الوحش الأسود أو إذا شئت فهي التطيع الأسود (كما سمي نيتشة عامة الشعب) وهو ما سخر منه نيتشة سخرًا ناريًا تتجلى فيه آيات بلاغته . أما ما ينبغي ذلك المجتمع الحديث فلا يتعدى شيئين متناقضين في طبيعتهما : العدالة والمساواة . على أن ما نسماه عدالة إنما يردده بينما الدنيا قد خيبت عليها عواصف انتقامنا . العدل فينا هو التعطش إلى القصاص والاختصاص بالتأثير . أما الإرادة في المساواة فذلك ما نسماه فضيلة ونريد أن نصعد صيحاتنا ضد كل ما هو قوى . لعمرى أن اقبح عنصر لهو ذلك العنصر الذي يتحدث دائماً عن العدل . أنه ليبدو على وجهه سمات الجلادين . فالحذر كل الحذر من جميع أولئك الذين يتحدثون كثيراً عن عدالتهم كلا . لست أريد أن اختلط بدعاة العدالة والمساواة . ولقد حدثتني العدالة فيما تحدث أن الناس غير متساوين » .

ولقد ظل نيتشة يعد الاشتراكين مثال العنصر المتصف بالفضيلة المحدود الرأي المسىء إلى الجماعة . عنصر عاشق للمساواة والسخف والقبح وكل ما هو مستغرب في الحياة ومعاد لها بل كل ما يهدم الحياة ويقضى باضمحلالها . أما الديموقراطيون فقد عدوهم من أنصار الظلمات الباردة . واعتقد أن الاشتراكى هو الديموقراطى المتبع للمنطق . مخلوق يعيش في الظلمة أهم ما يشغله أن يحمد كل ما ينير في الشمس .

وأسوأ ما في الحياة أن الأقوياء فيها . أولئك الذين أوتوا موهبة التدبير والادارة يرتضون التضامن مع السطحيين ويرون ضرورة وجودهم

ومشروعية رغباتهم وأخيراً الاشتراك معهم . قال : « ان الحياة ينبوع فرح . ولكن في كل مكان يستقى منه السفهاء يستحيل ينبوع الى سم زعاف ... على انى أتساءل عما اذا كانت الحياة في احتياج الى السفهاء ؟ » وكان نيتشة من أشد المفكرين احتقاراً للطبيع المنظم (الشعب) . كان من عباد القوة .

وبالتضامن مع السفهاء السطحيين تألفت الدولة الحديثة . الدولة التي تعمل على السطحيين . وهى الدولة المناقضة للطبيعة ولكل جمال فنى . وتحسب انها معبودة . وتؤكد انها معبود جديد .

على انها تعيش با كذوبة . انها تزعم انها الشعب . وهى أ كذوبة لا تطاق . أن لدولة حيوان مفترس من شر الحيوانات المفترسة . ان الخالقين الذين يعبدون هم الذين يخلقون الشعوب ويشهرون فوقها إيماناً وحباً . وكذلك يخدمون . انما الهدامون هم أولئك الذين ينصبون الشراك للاغلبية ويدعون ذلك دولة . ويشهرون على ذلك سيئاً ومائة لهوة . »

وتلك لعمري هى الدولة الحديثة . انها تقنع الشعب بانها منه وانها ممثله . وبهذه الذريعة تهبط به دون ان ترفعه . وتنيمه دون أن توقظه وتبعثه . وتتركه فى خموله وفطرته دون تعودة النظام . وتفعل ذلك وتريد معه أن تكون معبوده . وتزعم أنه ليس فى الارض من هو أعظم منها وأنها أصبع الله الأمر !

أن المجتمعات الحديثة بذوقها فى خلق الكثرة العددية من المخلوقات والسفه والسخف والدولة المعبودة بميلها إلى المساواة وكرها الطبيعى لكل سمو شخصى ليس أكثر من انتحار بطىء للانسانية . ولا تكون الدولة الا حيث يكون الصالح والطالح يستقى السم وحيث يضل كل منهما عن نفسه وحيث يدعى انتحار الجميع البطىء حياة ! »

« ولطالما مررت وسط ذلك الشعب فأحس بان نظري يقصر ويظل يقصر بسبب مذهبه فى السعادة وفى التفضيلة . انه يسير ببطء فيعموق من يمشى على عجل فى الزحام . . . والحصول ببساطة على سعادة جزئية هو ما

يسمونه الرضى والقناعة . وليس للشعب فى الواقع غير رغبة واحدة هى ألا
يسىء اليه أحد . وهذا ما يسمى فضيلة . على انه فى الواقع حين . . . أنهم
ليجعلون من الانسان الحيوان المنزلى للانسان . ويعدون السخف اعتدالا .
وبالاختصار انتهى نيتشة من النظر الى المجتمع عند اعتباره عائقا لمذهبه .
عائقا للحياة فى الجمال وفى النور . عد المجتمع هبوطا الى معالم الظلمة .

قال الناقد اميل فاجية فى خلاصة موجزة ان نيتشة لم يكن فيلسوفا خالقا .
وانه لمن الممكن ان نجتمع أفكاره كلها من « جوته » و « لاروشفوكول »
و « رينان » . واما ناحية الابتكار والخلق فيه فقد تستلح وتعد فى منتهى
الجمال . ولكنه من جهة اخرى عامى بحمل على كراهته بالنظر الى تهجمه وعدم
مبالاته . وتطرفه احيانا فى الرأي نظير قوله ان فى كل عمل عظيم جريمة
عظيمة . وسمو « بيرون » الروحى على الانجيل (!) ولو ان « رينان »
وصل الى هذا الحد من الغلو فى رأى اصار ممقونا .

لم يكن « نيتشة » خالقا ولكنه كان فى منتهى الذكاء . الذكاء الحديد
المتفوق . وهو مع ذكائه جريء عنيف فى الحق . فياض بالفكر . كثير
المتناقضات ولكنها جميعا قابلة للحل والتأويل

ولقد قال انه ليس ثمة شىء بلا قيمة وتوصل الى احراز شبه سيطرة
فكرية . وقال انه ليس الاشياء نهاية ولا معنى وقد اراد ان السبرمان هو
الغرض المراد من الحياة . وقال انه ليس شىء حقيقى ، وانه يلزم خلق تقديرات
حقيقية . وجوهر فلسفته ان الحق هو ما نهتدى اليه عن طريق القاعدة التى
نخلقها للحياة . وان المفكر لا ينبغى ان يتحدث الا عن تربية نفسه لا تربية
الآخرين وأن تربية النفس انما تكون تجربة تباشرفى غير المعلوم . وان من
واجب الانسان ان يؤلف افكارا شخصية لأنها وحدها تدوم وتثبت .

على ان نيتشة استطاع ان يعطى بكتاباته درسا للعالم . درسا يشمل حقائق
جديدة استكشفها بالبحث . وكان فى بحثه « دون جوان المعرفة » ومخاطرا
فى سبيل اصطیاد التفكرات

وبالرغم من أن أفكاره الأدبية والفنية غير ذات اتصال متين بفلسفته فأننا نرى ضرورة النظر إلى آراء الفلاسوف الحرة المستقلة في الأدب والفن إنما ينبغي أن نذكر قبل كل شيء أن نيتشة «كلاسيكي» من أنصار الثقافة الاغريقية . وهنا يتجلى لنا تأثير «جوته» و «رينان» في صاحب كتاب «زaratustra» . وقد سبق لنا القول بأن من الممكن الاطلاع على جوهر فلسفته في «جوته» و «رينان» و «شوبنهاور» . ولقد نشأ «نيتشة» اغريقياً منذ الصبا . تعشق الثقافة اليونانية من سن العشرين . وهي أساس تعليمه .

وكان من نتائج ذلك أنه شغف بدرامات «جنر» التي اعتقد - عن صواب - أنه استكشف فيها التراغوديا الاغريقية . على أن ذلك لم يمنعه فيما بعد من نقد درامات «جنر» التي وصفها بأنها كزهرة الخريف بين بدائع الرومانيسم .

وأقضى به ولوعه بالثقافة الاغريقية الى حب الادب الفرنسي في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وعلى الاخص «موتاني» الذي رأى فيه خزاناً الاغريق أكثر منه خزاناً للرومانيين ، ومن هنا أيضاً كانت مذهبه في القوة المترونة بالبساطة .

ولقد بلغ من عبادته للقوة أنه كان يصف «الفنان» بالمرضى . ولكنه مريض ممتلئ قوة فعالة وفيض خالق يهب الجمال أصدق قوالبه وأبدعها . وبعد فإن «الفنان» انسان شاذ ذو حالة خاصة يمكن أن نسميها حالة تهيج فوق الطبيعة » إنما يخلق الفنان الاحوال الاستثنائية الشاذة . الحالات المرتبطة أشد الارتباط بالظواهرات المرضية الى حد أنه يظهر أنه ليس من الميسور ان يكون الانسان فناناً «ارتيست» دون أن يكون مريضاً . تلك الحالات الفزيولوجية في الفنان تكاد تكون شخصية ثانية . وهي أولاً : الادمان على المسكر أى زيادة الشعور بالمقدرة والضرورة الكمية الى أن يجعل الفنان من الاشياء وسيلة لاتساعه وكمله الذاتي . ثانياً : الاحتداد المتناهي . أى احتياج الفنان الى التخلي عن شيء من ذاته بإشارات وحركات

تتم عن حالة ثورية شديدة . ولا بد لنا من تصور هذه الحالة على أنها رغبة قوية تدفعنا الى التماس من ذلك التوتر الخارجي بحركات عضوية عنيفة . ثم هي في الوقت ذاته اتصال غير اختياري لتلك الحركات بالظواهر الداخلية (التصورات والافكار والرغبات) ثالثاً . المحاكاة الارغامية التي هي ألا يقرر للفنان قرار حتى يرسل الى الملام ما يتصوره وما يدور في خلدده . كأن تكون صورته تولدت في الخاطر تعديل على ازعاج الفنان وتوقف ارادته وتجمعه في عمى وصمم عن كل ما يدور في الخارج . هذه الحالة الشاذة من فرط القلق والتبجح . هذه الحمى الخاصة هي ما يتميز به الفنان عن الرجل الدنيوى العادي . فان الاول بخمد تهيج به بان يولد ويعطي . أما الثاني فيخمد به بان يتلقى ويأخذ . وليس التباين بينهما لا غير بل هو أيضاً مستحب ومرغوب فيه . ولكل منهما نظر خاص . فانت اذا دأبت الفنان بأن يكون عند نظر المخرج والناقد انما تطالبه جهدم قوته في الخلق والابتداع . ولقد يشبه ذلك ما بين الجنسين (النساء والرجال) من التباين . فانه لا يجوز أن تطالب الفنان الذي يعطى أن يكون امرأة تتلقى وتأخذ . وما يزال الجال النقي عندنا الى الآن فنا نسوياً لان الرجال الذين يتلقون نسبياً في دائرة الفن هم الذين صاغوا للناس تجاربهم بشأن ما هو جميل . على أن الفنان الخالق هو من لا ينظر الى الخلف بل لا ينظر الى شيء قط . انما ينبغي له أن يعطي . وهذا الفخر الفنان العاجز عن النقد .

وحين يكون الفنان قد برأ على النقد لا يكون لهما ولا دسما انما يكون... «محدثاً !» (مودرن) . ويتصف الفنان أيضاً بأنه إلى حد كبير غير شخصي . وفيما عدا الفن الشخصي وغير الشخصي الفن الصادق الصحيح . وعلى هذا الاعتبار يكون غير الشخصي « ابرسونيل » لان شخصيته الاختيارية لا تدخل ولا ينبغي أن تدخل في عمله او كما قال نيتشة « يجب على المؤلف ان يسكت حين يتكلم عمله » . والفنان من جهة أخرى شخصي لان شخصيته الحساسة ومزاجه وذوقه يشيع دائماً فيما يخرج للناس من بدائع .

وتناول نيتشة بالنظر الفنون المختلطة فقال أنها دليل على عجز الفنان وأنها تشهد على عدم ثقة الفنان بمقدرته فاستعان بتجالف الفنون وتمازجها كما يفعل الشاعر حين يستعين بالفلسفة والموسيقى حين يستعين بالدرامة (يشير إلى فنز) والممثل حين يستعين بالبيان (ولعله في هذا يشير إلى نفسه) وكذلك الأسلوب المتغل بالبلاغة أو بالحشو إنما يعد ضعفاً في المكاتب أو الفنان في أى مدرسة وفي أى عصر وفي أى حضارة . فالفن في أوجه الاسمى هو الفن في بساطته . والفن الكلاسيكى أبداً بسيط . ولا يمكن أن يولد الفن الكلاسيكى الذى هو فن الجمال والبساطة والنظام لأول محاولة . وما الفن الا استعمال للذكاء وتجربة له . بل هو ثمرة الذكاء المتحد بالعاطفة .

*

* *

وانتقد « نيتشة » الرومانتيسم الالمانى من الانتقاد فوصفه بأنه فن متعطش الى الهجوع قال « إن الالماني حين أرادوا أن يجلبوا اليهم اهتمام شعوب أوروبا الاخرى خلعوا عنهم ثقافة ليس لهم نظيرها اليوم ولم يجيئوا بمثلها سوى ما اثمره الجنون السياسى والوطنى في عقولهم . واؤكد أن الثقافة الالمانية قد خدعت الأوربيين وأنها ليس جديدة لا بالتقليد ولا باللاهية التى يعلقها عليها بعض الامم الاخرى .

ونعتقد مع ذلك أن نيتشة لا يخلو من شيء من المغالاة في حكمه على الثقافة الالمانية .

وعجيب أن ينوء « نيتشة » بالثقافة فى حين يرفع الى المقام الاسمى كاتباً من الدرجة الثانية مثل « سترن » وينمضه على « ديدرو » لجورد ان « جوته » شهد بأنه أشد كتاب عصره حرية . ولكنهم انهمه فى آخر الامر بأنه استاذ الابهام والغموض .

واشد ما امتدحه « نيتشة » فى الفن الوضوح . وهو كما علمنا قد تعشق منذ صباه البيان الاغريقى والوضوح الفرنسى . ولقد يعد هو نفسه مثلاً أعلى فى الوضوح . وان نيتشة لخير بلغاء عصره . انه فنان فى أسلوبه . بسيط

فلسفته ببلاغة الكلاسيك . ولقد أعرب عن تأزده من أسلوب « شوبنهاور »

*

* *

الى هنا تنتهى من المقال الأول في فلسفة نيتشة ملاحظاً من كتاب
« اميل فاجيه » وهو من خير ما كتب في هذا الموضوع وسنشفعه بمقالين
آخرين يتاخر فيهما بقية الكتاب . ثم نبدأ بتاخر كتاب الاستاذ « هنرى
ليخنبرجيه » في الموضوع نفسه الذى تجتمع لدى قراء « العصور » فكرة
عامة كاملة عن مذهب فردريك نيتشة . وهو المذهب الفاسف الذى لا ينبغي
ان يجراه أحد في عصرنا . وما عرف عنه حتى الآن قليل لا ينفع غلة

عبد الحميد سالم

